الفصل السادس:
اجتهادات خلدونيَّة قابلة للتطبيق على عصرنا

المبحث الأول: اجتهادات سياسيَّة.

المبحث الثَّاني: اجتهادات اقتصاديَّة.

المبحث الثَّالث: اجتهادات في متفرقات اجتماعيَّة.

المبحث الأول: اجتهادات سياسيَّة

أما مصطلح (علم العمران) فهو أعمق، وأدق، إنه يعني مجتمعًا قام بتعمير مكان على كل المستويات السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والعقليَّة.

١ - العرب والانهيار:

أعطى ابن خلدون للعرب صفات محددة، ومنها أنهم لا يتغلبون إلا على السهول، والمناطق الزراعيَّة غير المحصنة، وهنا إشارة لقصة العلاقة بين الصحراء، والانهيار حيث اعتاد البدو الأعراب الإغارة على المناطق الزراعيَّة المتاخمة للدول المجاورة إذا وصلت إلى دور الضعف، ويخلص إلى النتيجة التَّالية، وهي أنهم إذا سيطروا من خلال هذه الغارات على أوطان؛ أسرع إليها الخراب.[1]

ومع أن كلامه هذا يتناقض مع حديث آخر له عن البدو يصفهم فيه بأنهم أحسن أخلاقًا، وعقولًا مع ذلك فإن حديثه الصادق هو عن وصف العرب بتخريب السهول المجاورة، وهو يؤكِّد بأن طعام الأعراب، أو العرب في انتهاك ما في أيدي النَّاس، وأن رزقهم في ظل رماحهم.

والشواهد التَّاريخيَّة -يقول صبحي منصور- تؤكد ذلك سواء في تاريخ أعراب الجزيرة، أو قبل الإسلام وبعده؛ فالسلب، والسبي من مفاخر الأعراب، وقد قاسى العراق، وجنوب الشام من غاراتهم، ودفع الثمن الحجاج القادمون من الرافدين،

---

(١) انظر المقدِّمة ص: ١٤٣.

ومصر، كما أن أعراب الصحراء الغربيَّة قاموا بتخريب العمران المصري الذي كان ممتدًّا من السلوم، والإسكندريَّة.

وفي العصر المملوكي كانت بعض القبائل الأعرابيَّة تخدم الدَّولة، وتحارب باسمها القبائل الأخرى التي تغير على القرى، وتصل غاراتها أحيانًا إلى أسوار القاهرة، وكان تخريبهم لأطراف العمران المصري شديدًا خصوصًا في الشرقيَّة، والبحيرة، والصعيد، ولم يكن ذلك بعيدًا عن ابن خلدون قبل، وبعد أن أتى إلى مصر.

إن عادة السَّلب، والنَّهب تتعاظم، وتتصاعد حين تجد متنفسًا لها من خلال دعوة دينيَّة، يقول الدكتور صبحي منصور: (... وبهذا كان الانتصار السَّاحق للفتوحات العربيَّة، والامتداد العربي فيما بين الهند، وأسبانيا، وبذلك تم توظيف قوة العرب المسلحة، وحياتهم القائمة على السلب.

و يدلل على ذلك بالإشارة إلى مصر حيث تخلو من العصبيَّات، ولذلك يسهل إقامة، وتوطيد الدَّولة فيها، وقال: إن المصريين غاية في الدعة، والسُّلطان راسخ نفوذه، ومصر عبارة عن سلطان، ورعيَّة.

وتحت عنوان (كيف يقع الحجاب في الدَّولة؟ وكيف يتعاظم؟) يشرح ابن خلدون الانفصام الذي يحدث بين الحكومة، والشعب، فيقوم بزرع الحاجز بين السلطة الحاكمة، والشعب مجموعة الحاشية، وعندما يتسع نفوذ الملك يحتاج إلى نوعيَّة من التعامل يعرفها الخواص من الملأ، أو الحاشية، ولا تلبث هذه الحاشية بدورها أن تتخذ لها حاشية، وهكذا تنعقد الدوائر المغلقة حول السُّلطان، ويتكاثف الحجب (جمع حجاب) بينه، وبين الشعب، وتتباعد بينهما المسافات إلى أن يفاجأ بسقوط دولته.

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم تحدث عن الملأ الذي ينافق السُّلطان سواء كان امرأة مثل ملكة سبأ، أو كان رجلًا مثل حاكم مصر في قصة يوسف عليه السلام، لكنه عندما تحدث عن قصة موسى، وفرعون فقد ذكر أنواعًا مختلفة، ومتدرجة من الملأ حيث كان فرعون موسى يملك الأرض، ومن عليها، ويمثل أفظع أنواع الاستبداد الذي يصل إلى ادعاء الألوهيَّة.

ثمَّ إن هذا الاستبداد يستدعي درجات من الملأ (من الحجب) تبدأ من عند المستبد، وتتفرع في قنوات سريَّة، وهذه القنوات تعمل في اتجاه واحد هو الملك المستبد إلى الرعيَّة، تحمل أوامره، ومصائبه إلى النَّاس، فلا تقوم بالتوصيل بين النَّاس، والملك، وتستخدم نفوذها في الظلم، والفساد.

وباعتبارها قناة التوصيل الوحيد للسلطان، والتي تأتي له بالمعلومات، أو بمعنى أصح التي تحجب عنه المعلومات، فلا يصل إليه منها إلا ما يفرحه، ويسره؛ حتى تحل الكارثة، وهكذا يقمع ذلك السُّلطان كل رأي حر، وكل نقد بناء، ويجعل وسائل الإعلام مقصورة على التهليل، والتقديس لشخصه، ويصور كل نقد إساءة لشخصه، وخيانة، وتلطيخًا لسمعة الوطن؛ حيث يكون هو الوطن، والنظام، والمجتمع، والنَّاس، وبمرور الزمن تتضخم ذاته، وتتفجر، ويتفجر معه نظامه.

أما النظم العسكريَّة في عصرنا فهي أقرب في طبيعتها للدول البدويَّة التي تقوم بالعصبيَّة العسكريَّة، ومن هنا فإن بعض ما قاله ابن خلدون عن الدَّولة البدويَّة ينطبق على حكم العسكر؛ فابن خلدون يقول: إنها في بدايتها، ونهايتها تحتاج أكثر إلى السيف، أو القوة، ويكون أرباب السيف أوسع جاهًا، وأكثر ثروة، أما في وسط الدَّولة فإننا نحتاج إلى أرباب القلم لتنظيم، وتكثير الإرادات، والشواهد في عصرنا،

وقبله تؤكد أن الفترة الأولى من الحكم العسكري يكون النفوذ الأكبر فيها للجيش، ثمَّ بعد فترة تستقل السطوة للشرطة السريَّة، والعلنيَّة.

وبسبب القهر، والاستبداد، والفساد، والتجارب الفاشلة يبدأ الإصلاح الجزئي، وهنا يأتي دور أرباب القلم، والخبراء في الاقتصاد، والإدارة، ولكن لا بدَّ أن يكون أولئك الخبراء من أهل الثِّقة، وأصحاب الولاء للحاكم، وهذا ما لم يغب عن ابن خلدون القائل بأن الدَّولة البدويَّة تسيطر عصبيَّة السُّلطان فيها على كل شيء من الأموال، والرسائل، وغير ذلك، أي: يتحكم فيها أهل الثِّقة من العسكر، ثمَّ تضطر الدَّولة إلى تعيين آخرين من بين أهل الخبرة في الاقتصاد، والإدارة، والكتابة، ولكنها كانت تجعلهم تحت سيطرة العسكر؛ فالدَّولة المملوكيَّة العسكريَّة جعلت الأمير المملوكي الدوادار حامل الدواة هو المسيطر على كاتب السر، أو صاحب ديوان الإنشاء، وهو من غير المماليك.

والمشكلة تكمن في أن بعض أولئك الموظفين المدنيين الكبار في السلطة العسكريَّة يتمتعون بالشرط الأساسي وهو ثقة السُّلطان، أو الحاكم فيهم، أي: أهل الثِّقة إلا أن خبرة بعضهم لا تكون كما ينبغي؛ ذلك أنهم في محاولة اكتساب الثِّقة ينشغلون بالهتاف، والتأييد للحاكم على حساب التخصص العلمي، والمهني في مجال عملهم، بينما ينكب المجتهدون على تحصيل العلم، والخبرة بحيث لا يكون لديهم وقت للتزلف للسلطان، وحين يحتاج السُّلطان إلى تعيين خبير فإنه بطبيعة الحال يفضل أهل الثِّقة، فيجعلهم قمة الجهاز؛ لأن وراء أولئك المنافقين لشخص السُّلطان، وليس لمصلحة البلد، أوالدَّولة، وحين يتربع المنافق على رأس الجهاز يشعر بالنقص العلمي في مواجهة ذلك الخبير المتمكن في العلم بينما يشعر الخبير المتمكن بالإحباط، والظلم، وينتهي الأمر بظلم زائد يقع على الخبير إذا أبدى ضيقًا، واعتزازًا بنفسه،

ويفقد الوطن، والدَّولة كفاءة كي يزداد أهل الثِّقة واحدًا إضافيًا، ومن هنا فإن الشهرة يحوز عليها من رضى عنه السُّلطان.

وابن خلدون رغم عبقريته فإنه أخضعها لعصره من ثوابت فكريَّة، ورموز سياسيَّة، ومن هنا فإنه لم يكن يتعاطف مع العبقري الذي ينافق السُّلطان، وأولي الجاه، واعتبره متكبرًا، يقول: (اعلم أن هذا التكبر، والترفع من الأخلاق المذمومة، وإنما يحصل من توهم الكمال، وأن النَّاس يحتاجون إلى بضاعته من علم، أو صناعة، ويصف أولئك الخبراء الأكفاء بأنهم يحقدون على النَّاس حيث لا يعطيهم النَّاس ما يستحقون من تكريم، كما أن النَّاس تمقتهم، وتكرههم؛ لتكبرهم، واعتزازهم بالنفس، فيعانون العزلة، والفقر، ولذلك يقرر في موضوع آخر أن الشهرة تأتي بالحظ لمن لا يستحقها، وتتجاوز من يستحقها من أهل النبوغ، والكفاءة.

وفي موضع آخر يشير ابن خلدون إلى قضيَّة معاصرة في عالمنا اليوم وهي التكنوقراط من كبار البيروقراطيَّة المكتبيَّة الذين يعملون بالسِّياسة وكل خبراتهم مكتبيَّة نظريَّة بعيدة عن الواقع، ويصدرون اللوائح، والقوانين التي لا تتفق مع الواقع، ويريدون إخضاع الواقع لهم لا أن تخضع قراراتهم للواقع، وهذا الصنف لم يوجد بهذه المواصفات كلها في عصر ابن خلدون إلا أن عقليته النافذة رصدت البدايات، وهذا ما نفهمه من قوله عن علماء عصره النَّظريين: إنهم أبعد عن السِّياسة، ومذاهبها؛ لأن السِّياسة تحتاج إلى مراعاة الواقع، واختلاف أحوال العمران حسب الظروف؛ لذلك من الخطأ إخضاع الواقع للفكر.

والسِّياسة هي فن التعامل مع الواقع، والتعامل مع الواقع يستلزم سياسيًّا يستطيع التفاهم مع الجماهير على اختلاف مستوياتها الثقافيَّة، وذلك لا يتأتى لعالم نظري مكتبي، بل لا يتأتى لذكي ألمعي عبقري يخرج به ذكاؤه عن مستوى عصره،

ومن هنا فابن خلدون يرى أن الأفضل في السياسي أن يكون متوسطًا للذكاء؛ لأنه أقرب إلى الأغلبيَّة.

وفي موضوع آخر يفضل أن يكون الحاكم متوسط الذكاء؛ حتى لا يرهق النَّاس،

وهناك إشارات أخرى كثيرة سارية المفعول منها:

- الترف من عوائق الملك، وبقدر ما تغلب العصبيَّة، أو القوة المسلحة تكون ثروتها، أي: أن الثروة على قدر النفوذ، والسلطة لكن الثروة ما تلبث أن تذهب بأصحاب القوة المسلحة إلى الترف، والترهل، والضعف.[1]

والنصر في الحرب يأتي تبعًا للحظ لأسباب خفيَّة، وطارئة مهما كانت الاستعدادات، وحيث لا يمكن الوثوق، والتأكد من النصر، وازدهار العصمة مقترن بازدهار الدَّولة، وتتعرض العاصمة للخراب إذا سقطت الدَّولة، والدُّول الكبيرة لا يؤثر فيها اختلال الحاكم.

(١) المقدِّمة ص: ١٥٨-١٥٩.

المبحث الثاني: اجتهادات اقتصاديَّة

إن مقدِّمة ابن خلدون تحتاج لقراءة متخصصة من علماء الاقتصاد، وفيها تتجلى عبقريته التي انطلقت في أمن من التعرض للثوابت الدِّينيَّة، والثقافيَّة لعصره، ومن هنا فإن اجتهاداته الاقتصاديَّة ليست قاصرة على عصره، وظروفه الاجتماعيَّة، وحتى ما ارتبط منها بظروفٍ سادت في العصور الوسطى فإن تلك الظَّواهر لا زالت قائمة إلى يومنا، ومنها التحايل بالكيمياء على ضعاف العقول، وإيهامهم بإمكانيَّة تحويل الأشياء إلى ذهب، أو ادعاء البحث عن الكنوز، والدفائن القديمة، واستخدام التدين في ذلك التحايل.

الزراعة:

ومن الأنشطة الاقتصاديَّة التي تعرض لها ابن خلدون من المنطق الثقافي لعصره الزراعة؛ فقد قال عنها -معبرًا عن عصره-: إنها حرفة الضعفاء؛ حيث يكون الفلاح ذليلًا تحت سيطرة القهر، ولا تزال تلك النَّظرة سائدة لحد الآن لدى بعض الدوائر الحاكمة حيث تصدر القرارات في مجال الزراعة دون مشورة أصحاب الشأن، والفلاحين، مع أن معظم أولئك الموظفين الكبار ينتمون إلى أصول ريفيَّة، ولكنهم توارثوا عن البيروقراطيَّة العثمانيَّة، والمملوكيَّة احتقار الفلاح، وهي نفس النَّظرة التي سجلها ابن خلدون في عصره.[1]

(١) المقدِّمة ص: ٣٥٨-٣٥٩. انظر مقدِّمة ابن خلدون دراسة أصوليَّةتاريخيَّة ٤٦٢ وما بعدها

والزراعة، أو الفلاحة، تعني الاستقرار، والسُّكون، والصبر، وطاعة الحاكم القائم بالحماية، وتنظيم الري، والصرف، وشئون الوادي، ومن هنا يصبر الفلاح على القهر، فالظالمون يفني بعضهم بعضًا، ولكن يظل الفلاح ملح الأرض باقيًا ما بقيت السموات، والأرض.

عبقريَّة التحيل، والدجل:

يصف ابن خلدون الدجالين محترفي الزعم بتحويل المواد إلى ذهب، فيصفهم بأنهم فقراء عاجزون عن الكسب الطَّبيعي، ويجعل أكثرهم من طلبة العلم، أي: مثقفين فقراء حولوا ذكاءهم، وثقافتهم إلى تحايل، ودجل لكسب المال بطريق سهل.

ويؤكِّد نظرته الاجتماعيَّة حين يقول: إن الفارابي آمن بفكرة تحويل المعادن إلى ذهب؛ لأنه كان فقيرًا، بينما أنكر هذه الفكرة ابن سينا؛ لأنه كان غنيًّا وزيرًا. أي: أن الظروف الاجتماعيَّة تؤثر في الآراء العلميَّة طالما قامت على أساس الجدل العقلي، والمزاج الشخصي دون التجارب العمليَّة.

وفي موضوع البحث عن المطالب، والدفائن كانوا يستعملون الطرق السحريَّة في البحث، وليس التنقيب العملي، واستهواهم ذلك البحث السحري المزعوم حتى أصبح فرضًا، وابن خلدون يستخدم تعبيرًا بالغ الدلالة في وصف حالهم فهو ينصح من يصاب (بهذا الوسواس أن يتعوذ بالله من العجز، والكسل، وينصرف عن طريق شيطان).

لقد ذكر ابن خلدون في فصلين من المقدِّمة أن الأشراف، وأصحاب المروءة لا يحترفون التجارة، ويتحدث في موضوع آخر عن المصاعب التي تواجه التجار منها قلة أصحاب الذمة، والغش، وتطفيف الكيل، والميزان، والمماطلة في الدفع، وجحود

الحق، وعدم الوصول للحق بواسطة القضاء إلا بصعوبة، وبعد مدة طويلة، كذلك يرى أنه لا يصلح للتجارة، ولا يفلح فيها إلا من كان جريئًا في الخصومة، بصيرًا بعواقب الأمور، شديد المماحكة، مقدامًا على الحكام، أو إذا كان صاحب جاه حتى يضمن حقه طوعًا، أو كرهًا، ويؤكِّد أنه كانت لذلك أخلاق التجار بعيدة عن المروءة، وأخلاق الملوك، والأشراف لما فيها من مساومة، وغش، وحلف بالكذب، ويندر من يكون من التجار شريفًا سليمًا من هذه الرذائل.

وقد وصف ابن خلدون الدُّول البدويَّة التي قامت بأنها ثمرة السَّلب، والنَّهب، والتخريب للأمصار، ومن الطَّبيعي أن يكون التجار ضحايا مثاليين لهذا النوع من الأنظمة الحاكمة خصوصًا وأن طرق القوافل يتحكم فيها قطاع الطرق من اتباع الدَّولة، وخصومها، ومن هنا فالتاجر الذي يستطيع الصمود في هذا المناخ، إما أن يكون مغامرًا أقرب إلى قطاع الطرق، وإما أن يكون وثيق الصلة بالحكام، أي: أقرب أيضًا إلى قطاع الطرق الرسميين.

ولعل نظرة ابن خلدون هذه ترتبط بموطنه المغرب حيث لا استقرار آنئذٍ في حين أن الأمر يختلف في مصر والمشرق، حيث الأمن مستتبًّا، وحيث كان التاجر ذا وضع أكثر احترامًا، وابن التاجر في رواية ألف ليلة وليلة لا يختلف كثيرًا عن أبناء المترفين، وكثير من التجار في العصر المملوكي أفسحت لهم الحوليات التَّاريخيَّة بين سطورها، وكان منهم من سلك طريق العلماء على سبيل الهواية، ومنهم من سجلته الحوليات التَّاريخيَّة بسبب كرمه، وعلاقاته الطيبة بمجتمع العلماء، والسياسيين، ومنهم من ابتنى مساجد مؤسسات دينيَّة، وتعليميَّة.

بين الثروة والنفوذ، بين الجاه والمال:

يؤكِّد ابن خلدون على العلاقة بين الثروة والنفوذ، أو بين الجاه والمال فيقول: إن المتمول، أو الرأسمالي يحتاج إلى الجاه؛ فالتاجر صاحب الجاه أكثر ثروة من التاجر الذي لا جاه له، بل إن الفقيه صاحب الشهرة لا يلبث أن يصبح صاحب جاه، ثمَّ صاحب ثروة، وهذه حقيقة تنطبق على كل زمان، ومكان.

وفي موضع آخر يقول: إن المال يأتي عن طريق العمل، ولكن الجاه يفيد تنمية المال، وبدون الجاه يكون الكسب على طريق العمل.

ويتعرض لأحوال النفوذ، فالنفوذ يتركز في السُّلطان، ثمَّ يوزع من هذا المركز على الحاشية، وأصحاب القوة، وعلى قدر هذه القوة.

ويشير إلى الطبقات الاجتماعيَّة فيوضح أن لكل طبقة جاهًا، ونفوذًا، وسطوة، وهي تخضع للطبقة الأعلى منها، والتي تكتسب منها النفوذ، ثمَّ تمارس هذا النفوذ على الطبقة التي تليها، والتي تعطيها بعض النفوذ، وهكذا فالطبقة الأدنى تستمد نفوذها، وجاهها من الطبقة التي تعلوها، وتزداد ثروتها بقدر الجاه الذي تتمتع به، وهكذا تتميز كل طبقة عن الأخرى بقدر جاهها، وثروتها.

ثمَّ يلتفت ابن خلدون إلى أحوال صاحب الجاه، ويبين أنه إذا ضاع منه جاهه، ونفوذه ضاعت منه ثروته، وإذا اقتصر على عمله؛ يصبح فقيرًا، وهكذا يتزلف المنافقون لأصحاب النفوذ طلبًا للثروة، والسطوة معًا، ومن يترفع عن النفاق، ويقتصر على التكسب على عمله يظل فقيرًا مهما بلغت كفاءته، ومهما بلغ نبوغه، وإخلاصه لعمله.

وصفة خلدونيَّة للإصلاح الاقتصادي:

هناك قواعد عامَّة تؤكد على دور الدَّولة في الاقتصاد، منها أن آثار الدَّولة أي: جهدها في العمران يكون بقدر قوتها، وقوتها بقدر ثرائها الاقتصادي، ويعتمد هذا الثراء الاقتصادي على رسوخ الدَّولة أي: استقرارها، واستمرار هذا الاستقرار، وذلك الاستقرار السياسي يتحول فيه الازدهار الاقتصادي إلى حضارة مستحكمة، ومستقرة، وبعد التأكيد على الدَّولة التي هي السُّلطان المستبد يعمل ابن خلدون على تقليص دور السُّلطان في الداخل في الحريَّة الاقتصاديَّة، بل يكون دوره في منع الظلم، ومنع السُّلطان من الاحتكار، والمغالاة في الضرائب.

ويرى ابن خلدون أن من الخطأ أن يعمل السُّلطان، أو الدَّولة في الزراعة، والتجارة، وفي نشاط اقتصادي، بمعنى أن الدَّولة لا ينبغي أن تقوم بالإنتاج الاقتصادي؛ لأن ذلك يعني تدخل السلطة في قهر المزارعين، والتجار على أسعار لا يرضونها، مما يجعل حماسهم يضيع فلا ينتجون، وطالما تناقص الإنتاج فإن دخل الدَّولة من الضرائب يتناقص، لذلك لا بدَّ من رفع يد الدَّولة عن الإنتاج، وأن تترك النَّاس يعملون مكتفية بفرض الضرائب، ويرتبط ذلك بتحريم ابن خلدون للاحتكار، فهو يقول في صراحة بأن الاحتكار في الزرع مشئوم، وبالتَّالي فلا يجوز للسلطان أن يحتكر سلعة، ويرغم النَّاس على شرائها بالتسعيرة التي يحددها، ولا يجوز له أن يبخس النَّاس أشياءهم، وتلك قاعدة قرآنيَّة.

ويلتفت ابن خلدون إلى ناحية أخطر، وهي احتكار السُّلطان للثروة، وليس مجرَّد الإنتاج الزراعي، فيؤكِّد أن السُّلطان، أو الدَّولة إذا اكتنز الأموال في النَّاس حتى يدور المال دورته، فينتعش الاقتصاد.

ولخص ابن خلدون ذلك كله في عنوان موجز يقول: (نقص العطاء من السُّلطان نقص الجباية).

لكن السُّلطان قد يلجأ لظلم النَّاس، واحتكار جهدهم بلا مقابل، أو ما يعرف بالسُّخرة، وهنا نجد ابن خلدون يقول محذرًا في عنوان واضح: (إن الظلم مؤذن بخراب العمران)، ولا يكتفي ابن خلدون بالعنوان بل يشرحه بالتفصيل، وبالتحليل، وبإيراد الأمثلة، ثمَّ يجعل نصف الفصل في تحريم، وتجريم السُّخرة، وملخص كلامه أنه على قدر الظلم يكون التقاعس عن العمل، والإنتاج، ويرى أن الظلم هو اغتصاب أيَّ حق مادي، أو معنوي، ثمَّ يؤكِّد على أن السُّخرة من أفظع أنواع الظلم، وكذلك الاحتكار في البيع، والشراء، والظلم يؤدي إلى خراب المجتمع، وسقوط الدَّولة في النهاية.

ولكي نقدر ابن خلدون على هذا التصريح فسنعطي أمثلة تكشف لنا كيف أصبح الظلم عادة في العصر المملوكي لا تستوجب كثيرًا من الاستنكار؛ فالعصر المملوكي هو عصر بناء العمائر الدِّينيَّة، وهذه العمائر لا تزال قائمة الذات في القاهرة حتى الآن.

ومن المفهوم أن تلك العمائر قد أقامها أصحابها تقربًا لله تعالى، ومن المفروض أن تكون بمال طيب منزه من أيِّ ظلم، أو سخرة... ولكن كان يحدث العكس.

ولنستشهد بأقوال مؤرِّخين من نفس العصر، فالمؤرِّخ المملوكي الأصل أبو المحاسن بن تغري بردي يقول عن المماليك: (وأعجب من ظلمهم إنشاؤهم الربط (جمع رباط)، وهومسجد صغير للصوفيَّة من هذا المال القبيح، واستشهد أبو

المحاسن بمدرسة فخر الدِّين، ومدرسة جمال الدِّين الاستادار، وما حدث من ظلم في بنائها برغم التقرب لله).

وترددت إشارات أخرى كاستعمال الفسق، والقوة في بناء العمائر الدِّينيَّة، فقد ذكر العيني أنه نودي في القاهرة: ألا يخرج أحد من النَّاس إلى أن تتم عمائر السُّلطان الناصر فرج، ومنعوا بيع المؤونة، والغذاء، فحصل بذلك ضرر كبير للناس، وأراد الناصر فرج سلب رخام مدرسة جمال الدِّين الاستادار، وهو أمير ظالم سابق، فالتزم بعض أعوان السُّلطان بأن تصبح الخانقاه ملكًا للسلطان، ويمحو منها اسم جمال الدِّين الاستادار، واستعان بالقضاة في تنفيذ ذلك بطريق الاستبدال، وكان ذلك بعد وفاة ابن خلدون بست سنوات.

ويذكر أبو المحاسن أن الأمير قان بردي الأشرفي شرع في بناء عمائره الدِّينيَّة، وكان ذلك في عدة أيام.

ويصف أبو المحاسن ما حدث للعمال فيقول: (ومع هذا ظلم في تلك الأيام الظلم الزائد، وعسف بالصناع، وأبادهم بالضرب، واستعملهم بغير أجرة، فما عف في ذلك، ولا كسف)، وكان يونس الداودار مشهورًا بحب الرشوة، ومن أمواله تلك أقام مدرسة، وخانقاه، ورباطًا، وزاوية، وتوفي أثناء وجود ابن خلدون في مصر أي: سنة ٧٩١.[1]

وقال المقريزي عن الأمير أفيظا: (...ومع ذلك أقام مدرسته المعروفة بالإقبضاوية، وفيها صوفيَّة خصصهم للدُّعاء له).

---

(١) مقدِّمة ابن خلدون دراسة تاريخيَّة أصوليَّة ص: ٤٦٥-٤٦٩.

ولما بني السُّلطان المؤيد جامعه المشهور ينقل ابن إياس ما حدث للناس في بناء ذلك المسجد يقول: (حصل للناس بسببه غاية الضرر؛ لأجل الرخام، وصار المؤيد يكبس (أي: يهجم) الحارات التي فيها بيوت المباشرين (أي: كبار الموظفين)، وأعيان النَّاس بسبب الرخام، وكان والي القاهرة يهجم على النَّاس في بيوتها، ومعه المرخمون (أي: صناع الرخام)، فيقلع رخام النَّاس طوعًا، أو كرهًا، فأخرب دورًا كثيرة).

واستولى زين الدِّين الاستادار على معاش الفقراء، وجمع من هذا المال الخبيث أموالًا كثيرة، وعمر منها الجوامع، والمساجد، والسبل (جمع سبيل).

أما السُّلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد اشتد عشقه الشاذ بالأمير الطنبغا المارديني، فأشاد له جامعًا.

يقول المقريزي في حوادث سنة ٧٣٥: (وفيها كثر شغف السُّلطان بمملوكه الطنبغا المارديني شغفًا زائدًا، فأحب أن ينشئ له جامعًا).

ووصف المقريزي الظلم الذي صاحب إنشاء هذا الجامع الذي لا يزال حتى الآن من مفاخر العمائر المملوكيَّة، هذا جانب من الظلم الذي حاربه ابن خلدون.

ويضع ابن خلدون قواعد تربط بين مراحل الدَّولة، وفرضها للضرائب، فالدَّولة في بدايتها تكون بسيطة قليلة الإنفاق، والمصاريف، ولا تعرف الترف، ولا تفرض ضرائب كثيرة، وحين تدخل في دور الترف تتكاثر مصاريفها، ومشاكلها، فتضطر لفرض ضرائب لتنفق منها على العسكر، والحماية، فيأتي الكساد، وتأتي دولة جديدة تبدأ عهدها بإلغاء الضرائب التي لا داعي لها، والبديل عن تدخل الدَّولة، وظلمها هو كثرة السكان، وكثرة الأيدي العاملة التي تجد المجال مفتوحًا لأن تعمل، وتنتج في دولة مستقرة عادلة، ويتجلى هذا في حديث ابن خلدون الذي يربط فيه بين كثرة

السكان، وكثرة الإنتاج، فهو يقول: إن تفاضل المدن في كثرة الأرزاق، والأسواق الناشئ عن كثرة العمران، والسكان وازدياد السكان مع كثرة العمل يعني زيادة الإنتاج، ينتج عنها فائض بقدر الزيادة السكانيَّة، والعمرانيَّة، ويتحول هذا الفائض إلى الرفاهية، وإنتاج الكماليات، والتصدير.

وفي موضوع آخر يؤكِّد على أن وفرة الإنتاج تعني التصدير، والتأنق، والترف، وبالتَّالي ازدهار الصناعات، والحرف (جمع حرفة).

ويقول: إن العمل يعني الكسب، والمعاش، والمكسب الزائد يعني الاستثمار، واقتناء الكماليات.

وإذا تناقص العمران؛ تناقص العمل، وتناقص الإنتاج، وتخربت المرافق من المياه، وغيرها.

وقد جاءت آراء ابن خلدون صالحة لأن تكون قواعد عامَّة منها:

* أن بعض المدن تتخصص في بعض الصناعات، وتشتهر بها.

* وأن الترف يخلق أنشطة اقتصاديَّة جديدة، وتختلف الأقطار في أحوالها الاقتصاديَّة مثل اختلاف المدن اقتصاديًّا.

* ومنها أن النَّشاط الاقتصادي أساس الاختلاف بين الريف، والحضر، وبازدهار النَّشاط الاقتصادي في الريف يتحول إلى حضر.

ومنها أن نوعيَّة الحيوان في الرعي تحدد درجة التحضر لدى الرعاة، وتحدد مدى تنقلهم قريبًا، أو بعيدًا عن الحضر، ولذلك كان العرب البدو أكثر خشونة، وتخلفًا

لقدرة الإبل على التوغل بعيدًا في عمق الصحراء، ويقوم الحضر على أساس الكماليات، بينما تقوم حياة البدو على الضَّروريات.

الصَّنائع (الصناعة):

بالرَّغم من موضة الفقر في الصناعة بالنِّسبة لمصر، وغيرها فإن تقعيد ابن خلدون للصنائع يظل صالحًا لعصرنا، وقد وضع ذلك في عدة قواعد منها:

١- العرب أبعد النَّاس عن الصَّنائع؛ لأنهم أعرق في البداوة، وأبعد عن التحضر، وما يستلزمه من صنائع، وفي المقابل فإن الصَّنائع تزدهر بازدهار العمران، وعلى قدر العمران يكون التقدم في الصَّنائع والتأنق فيها، وترسخ الصَّنائع برسوخ الحضارة، وطول أمدها حتى لو تراجع العمران، وإذا تناقص العمران، وتراجع الترف؛ اكتفى المجتمع بالضَّروريات، وقلَّت الصَّنائع، وانتهت صناعات الترف مثل الجواهرجيَّة، والزخرفة.

٢- تجود الصَّنائع إذا كانت مطلوبة، ومن أتقن صناعة قل أن يتقن غيرها؛ لأن الملكات صفات للنفس، فلا تزدحم داخل النفس الواحدة، فإذا بدأ الإنسان بفطرته يتعلم صناعة؛ فإن نفسه تصطبغ بهذه الصناعة، وتكون أضعف عن قبول غيرها، وينطبق ذلك على مجال الفكر، والعلم.

الأسعار:

وقد وضع ابن خلدون عدة قوانين للأسعار جديرة بالاعتبار منها:

١- بالنِّسبة لعلاقة الأسعار بالعمران والضَّروريات، والكماليات: إذا زاد العمران؛ رخصت السلع الضَّرورية، وانخفضت أسعار الكماليات؛ لأن الكماليات لا يطلبها الجميع، وإذا زاد العمران؛ أصبحت الكماليات مطلوبة.[1]

فلا يكفي المعروض منها حاجة الطالبين، فتزداد الرغبة فيها، ويرتفع ثمنها، وإذا زاد العمران؛ تشعبت الصَّنائع، وارتفعت أجور الحرفيين، وانتعشت أعمال الحرف.

٢- وفي موضع آخر يتحدث عن أجور الحرفيين، وظاهرة التضخم عند كثرة العمران، والترف، فيقول: إنه بكثرة العمران، والترف تتحول الكماليات إلى ضروريات، وترتفع أسعار الحرفيين، مما يجعل الأسعار كلها ترتفع على قدر العمران، ويحتاج رب الأسرة إلى دخل كبير ليغطي مصاريف أسرته مما يجعل من العسير على الفقير أن يعيش في تلك المدن، وهذه الحالة تنطبق على عصرنا الراهن.

٣- وعن أسعار العقارات، والمزارع يقول: إنها تتغير إذا أشرفت الدَّولة على الانهيار، فيضطرون إلى بيع ممتلكاتهم لتتحول إلى ملك لآخرين يشترونها رخيصة، ثمَّ يعلو سعرها بعد ذلك.

وهنا يربح الاستثمار في العقارات في الشراء من أصحاب المجد الزائل لكن شريطة ألا تمتد أيدي أمراء الدَّولة الجديدة إلى ذلك الاستثمار بالاغتصاب، أو شرائه بثمن بخس.

وإيراد العقارات يكفي المعاش فقط، ويكون مصدرًا للذريَّة الفقيرة.

وواضح أن هذه القواعد لا تزال سارية المفعول.

---

(١) مقدِّمة ابن خلدون دراسة أصوليَّة تاريخيَّة ص: ٤٦٩-٤٧٢.

٤- ويقترب ابن خلدون مرة أخرى من نظريَّة العرض، والطلب في حديثه عن نقل السلع فيقول: إن الأفضل نقل السلع متوسطة الجودة، وقال: إن ثمن السلعة المنقولة من مكان بعيد، أو من مكان خطر يرتفع سعرها، ولكن حين تأتي السلعة بكثرة يقل ثمنها.

واقترن حديثه ذلك بالهجوم على الاحتكار، وفسر شؤم الاحتكار على الزرع بأنه يسبب حقد النَّاس على المحتكر للأقوات.

٥- وفي النهاية يرى ابن خلدون أن رخص الأسعار يضر بالفلاحين، والتجار ومن لهم علاقة بتلك السلعة التي يرخص سعرها، وبالتَّالي يتأثر إيراد الدَّولة، وأعطى مثلًا على ذلك برخص أسعار الحبوب، وقلة دخل المنتجين، والتجار، وأصحاب المخابز، ولكنه أكد على أهميَّة أن تكون أسعار الغذاء رخيصة؛ لأنها سلع ضروريَّة للجميع.

المبحث الثَّالث: اجتهادات خلدونيَّة في متفرقات اجتماعيَّة:

١- في علم اجتماع المدن (إذا صحَّت هذه التسمية)، أو في القوانين العامَّة للعمران: لقد توقف ابن خلدون مع عدة قوانين استنبطها، منها:

* أن الدُّول أقدم من المدن حيث أن الدَّولة هي التي تبني المدينة، وهذا يتفق أكثر مع موطن ابن خلدون.

* ومنها أن السلطة تستدعي الإقامة في المدن، وهو هنا متأثر بالدُّول الصحراويَّة، أو أن القبائل المسلحة التي تقهر مدينة، ثمَّ تقيم دولتها على ما تبقى من تلك المدينة.

* ومنها أن الدَّولة العظيمة تقيم المدن العظيمة، والآثار العظيمة من هياكل، ومشروعات لا تستقل ببنائها دولة واحدة، بل تتعاقب الأجيال على بنائها، واستشهد بالأهرامات.

كما وضع شروطًا في بناء المدن مثل إمكانات الحماية، ووجود المنافع الاقتصاديَّة، وتسهيل المرافق، وذلك بالقرب من المياه، والمزارع، والمراعي، والقرب من البحر ليسهل الاتصال بالعالم الخارجي.

واشترط في المدن الساحليَّة أن تكون في منطقة جبليَّة، أو قريبة من العمران، ووسائل الحماية؛ ليسهل الدفاع عنها.

وقال: إن المدن قليلة بشمال أفريقيا، والمغرب؛ لأن البربر قبائل تهتم بالانتماء للنسب دون الكمال، وتتجمع في الصحراء، ولا تهتم بالسكن في الحواضر، والعرب كذلك لم يهتموا بعد الفتوحات بإنشاء المدن الكبرى، واكتفوا بالمدن القائمة خصوصًا بعد ابتعادهم وقتها عن الترف، فلما دخلوا في الترف استعانوا بأبناء الأمم المفتوحة في إقامة العمائر والمدن.

والمدن التي أنشاها العرب لم يراعوا فيها إلا القرب من الصحراء، ورعاية الإبل، ولذلك كانت بعيدة عن المرافق، والمياه، ولهذا كان يسرع إليها الخراب، واستشهد بالكوفة، والبصرة، وقال: إن تونس اختلفت عن بقيَّة المنطقة بسبب سهولة الاتصال البحري بينها، وبين مصر، والتوافد المستمر بينهما، فتشابهت أحوالها بمصر (جدير بالملاحظة أن الطريق البري بالنِّسبة للحجاج المغاربة الوافدين إلى الشرق من المغرب بشكل عام كان محفوفًا بالمخاطر، ولهذا السَّبب فقد كان استعمال الطريق البحري أكثر أمنًا، وأبعد عن المخاطر).

ثمَّ قال: إن المدينة تبدأ بسيطة، ثمَّ تتطور، وتتأنق، ثمَّ تعود إلى الانكماش، والتقلص، ثمَّ الخراب، والبساطة الأولى، وهذا ينطبق أكثر على موطنه، وقال: إن المال، والحضارة أساس في العاصمة، وتفتقر المدن القاضية للحضارة حتى ولو كانت كثيرة السكان، وبذلك بخلاف المدن ذات الموقع المتوسط.

٢- الطبقات الاجتماعيَّة:

ولعل ابن خلدون كان سابقًا في رصد الصراع الطبقي، وإن كان ذلك المفهوم لم يكن واضحًا لديه إلا أنه سبقت الإشارة في موضوع العلاقة بين الجاه، والنفوذ إلى أن كل طبقة تكتسب نفوذًا من الطبقة الأعلى، وتمارسه على الطبقة الأدنى مما يفيد وجود نوع من الاحتكاك الطبقي أدركه ابن خلدون.[1]

وقد أفاض ابن خلدون في الحديث عن مجتمع البدو، وقيامه على العصبيَّة، والنسب، والقوة المسلحة، كما أشار إلى المترفين، وظهور المنافقين السفلة في أواخر الدَّولة يتحكمون مع المترفين في شئونها.

وهكذا فإن وجود الطبقة الوسطى يعتبر صمام أمان للمجتمع حيث تكون سلمًا آمنًا يصعد عليه المتعلمون من أبناء الطبقات الدُّنيا، ولذلك يزول الحاجز الحديدي بين الطبقتين المتناقضتين المترفة، والجائعة.

وبالتأكيد فإن مفهوم الطبقة الوسطى سياسيًّا، واجتماعيًّا لم يكن واضحًا في ثقافة ابن خلدون، وعصره، وإن حديثه عن العلماء، والمتعلمين، والتجار يندرج ضمن الملامح الأساسيَّة للطبقة الوسطى سياسيًّا، واجتماعيًّا خصوصًا وهو يصف الفلاحين بالضعف، والذلة، والخضوع للقهر، ويصف التجار بالانتهازيَّة، والمكر

(١) مقدِّمة ابن خلدون دراسة أصوليَّة تاريخيَّة ص: ٤٧٢-٤٧٥.

شأن حكام عصرهم، ويجعل المثقفين، والكتَّاب، والعلماء من أصحاب القلم الذين يخدمون السلطة، وكان منهم ابن خلدون نفسه، بينما يتربع على القمة السُّلطان، والأمراء، وأصحاب العصبيَّات، ومراكز القوى، وحيث لا يصل من أولئك العلماء، والكتبة إلى السُّلطان إلا من يجيد النفاق، والولاء فإن جزءًا من الطبقة الوسطى يلتحق بالطبقة العليا بينما يزداد فقرًا من حافظ على كرامته، وكفاءته، ويكون مرشحًا للسقوط في الطبقة الدُّنيا، ويضاف إلى ذلك حالات الدَّولة (السُّلطان) ما بين توطيد الحكم، والاستبداد به إلى دعة، وسكون، وقنوع، ومسالمة، ثمَّ إلى ترف، وضعف، وشيخوخة، وتحلل للدولة، وهذا التطور، والصراع ينعكس بدوره على حركة الطبقات، والاحتكاك بينها إذ تختفي العصبيَّات القديمة، أو الطبقات العليا الأولى التي أسهمت في قيام الدَّولة، وليحل محلها أتباع جدد منهم عسكر، ومنهم مثقفون كتبة... وهؤلاء قد يصعدون من أحقر طبقات المجتمع (مماليك، وخدم)، أو من الطبقة الوسطى (مثقفون)، بينما يقاسي أبناء العصبيَّات القديمة الزائلة من الفقر، والاضطهاد، والهجرة.

ثمَّ في نهاية الدَّولة، ومجون السُّلطان، وضعفه يقل عدد من حوله من الرجال المحترمين، ويتكاثر الأسافل من المنافقين، وتتكاثر دوائرهم حوله، يحجبونه عن الشعب، وذلك معروف في تاريخ الخلفاء الضعاف في العصر العباسي، وغيره. وبالتَّالي ينعكس هذا على الاحتكاك الطبقي فيعلو قوم، ويهبط آخرون من سائر الطبقات.

كل ذلك يمكن فهمه من خلال المقدِّمة إلا أن ثقافة ابن خلدون في عصره لا تسمح بتجلية هذا الموضوع في عناوين مستقلة، ليس فقط لأن ثقافة الصراع الطبقي

لم تكن قد ظهرت في العالم حينئذٍ، ولكن لأن السُّلطان كان مدار الكون، وعنه يبدأ الحديث، وإليه ينتهي، وحوله يدور المجتمع في (طبقات) كالكواكب حول الشمس.

في التربيَّة والتعليم:

كعادته يربط ابن خلدون كل مظاهر الحضارة بتقدم العمران، وازدهارها، ولذلك يقول هنا: إن ازدهار التعليم بازدهار العمران.

ويدعو إلى الرحلة في طلب العلم، وكان ذلك عادة في تاريخنا الإسلامي حيث لا حدود، ولا قيود، وهذه الدعوة إلى الرحلة في طلب العلم لا تزال سارية المفعول، ولكن تضاف إليها الرحلة إلى بلاد الحضارة الحديثة حيث كانت من اليابان شرقا إلى أمريكا غربًا.

وفي العلوم دعا ابن خلدون إلى عدم التفريع في العلوم التي ليست مقصودة لذاتها كالنحو؛ لأن التفريع فيها يصبح لغوًا، ويزيدها تعقيدًا.

وفي التعليم أشار من طرف خفي للربط بين زيادة الذكاء بالتعليم، وممارسة الصَّنائع حتى تزداد ملكات التلميذ، كما نهى عن الشدة في ضرب التلميذ، ومراعاة التدرج في التدريس.

٤- في العلم:

من المعلوم أن المستوى العلمي في العصر المملوكي هبط حيث دار العلم حول التقليد، والجمود، وتلخيص ما سبق، ثمَّ شرح التلخيص، ثمَّ تحويل الملخص إلى متن، وإعادة شرحه، وهكذا.

وقد هاجم ابن خلدون هذه الظَّاهرة تحت عنوان (كثرة الاختصارات في العلوم مخلة بالتعليم)، وعنوان (كثرة التَّأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)، وفيها رصد الأثر السيئ لهذه الظَّاهرة على درجة استيعاب الطالب لهذه المؤلفات التي تدور حول حشو، وقشور، وتفصيلات شكليَّة لا طائل من ورائها.

وقد اهتم ابن خلدون بتنمية ملكات النفس في حديثه عن التعليم، والصَّنائع إلا أنه كان يربطها أحيانًا بملكة الحفظ، والتلقين، فيعتقد أهميَّة التلقين، ويرى أن التعليم الفعلي يكون بالمباشرة، والتلقين، وهكذا خضوع ابن خلدون لمنطلق عصره القائم على الحفظ، والتلقين، وترديد ما قاله السَّابقون دون نقد، أو اعتراض، مع أن عقليته المتفردة كانت تطل بين السطور تبتكر، وتقول ما لم تقله عقول الآخرين في عصره.

وعلى سبيل المثال فإنه يعلل انتشار المذهب المالكي بشمال أفريقيا، والأندلس برحلتهم إلى الحجاز دون المرور على العراق، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، ومذهب مالك فيها، ثمَّ تشابه الظروف البدويَّة بين الحجاز، وشمال أفريقيا.[1]

(١) مقدِّمة ابن خلدون دراسة أصوليَّة تاريخيَّة ص: ٤٧٥-٤٧٨.